مجلة آفاق لعلم الاجتماع

ISSN : 1112-8259 EISSN :2600-6855

العدد 15 / جويلية 2018

تاريخ الإرسال: 2018/03/10 تاريخ النشر: 2018/07/01

قراءة تحليلية سوسيولوجية لظاهرة زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين في الجزائر

أسامة باحمد

جامعة البليدة2، الجزائر

د. بن عاشور زهرة

جامعة البليدة2، الجزائر

الملخص:

إن المجتمع الجزائري من المجتمعات الإسلامية التي تعتز بإسلامها وتفتخر به، فالمسلم يعمل جاهدا على التعلم مبادئ الدين الإسلامي، ويحرص على تعليمها من تلاوة القرآن الكريم والأحاديث في مختلف الأماكن الدينية كالزوايا والكتاتيب والمساجد، لذلك نجد العديد من الأفراد يزورون هذه الأماكن الدينية للتبرك بها أملا أن يكون خيرا ينالونه من هذه الأماكن أو القائمون عليها.

الكلمات الدالة: الزيارة ، الطقوس، الكرامة، الدين

Abstract

La société algérienne travaille dur pour apprendre les principes de la religion islamique et veut apprendre à réciter le Saint Coran et les hadiths dans divers lieux religieux tels que les angles, les danses et les mosquées, et beaucoup de gens visitent ces lieux religieux pour bénir l'espoir. Être bon à recevoir de ces lieux ou de ceux qui les entretiennent.

Mots-clés: visite, rituel, dignité, religion

مقدمة:

تعيش المجتمعات العربية العديد من التحولات و التطورات من الصعب تجنبها والتي تفرضها طبيعة الحياة الاجتماعية المعاصرة، فوظيفة المجتمع الحديث و كرامة الإنسان وقيمته تجعل أصناف المجتمع الواحد لتفاعله مع الماضي بكل ما يحمله الموروث الثقافي من أصالة و عادات و تقاليد التي نشا عليها و التي اكتسبوها من الأجداد و الإباء و هذا الموروث يعمل في طياته للعديد من المعتقدات الدينية و الشعبية التي كانت لها أهمية كبيرة في حياة الفرد و المجتمع، وهنا يقتصر الحديث عن زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين التي تكون في اغلب الأحيان ناتجة عن العديد من الأسباب و العوامل التي تدفع الأفراد إلى ممارسة هذه السلوكيات و الطقوس حسب اختلاف بنية أو هدف من زيارة لكل واحد منهما، وتتشكل هذه الظاهرة زيارة أولياء الله الصالحين من إحدى الممارسات الدينية المنتشرة حيث نجد لها أماكن متميزة و هي مكان لنشاطات وممارسة الطقوس بمختلف الأشكال، و لهذا فان الموضوع زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين يمتاز بالقداسة و يمكن إدراج هذه الظاهرة ضمن مواضيع الانثروبولوجيا الدينية خاصة عند الحديث عن الفضاءات المقدسة.

أولا: تحديد المفاهيم

الزيارة:

يطلق عادة على قيام الزائر بالمزارات وهي من إحدى المواضيع التي قررت العادة زيارتها للتبرك بمن جلس فيها من الصالحين أو دفن فيه أو سميت به ، وقد عرف الدكتور طواهري الميلود أم مفهوم الزيارة تترجم كحركة ونقلة مادية ومعنوية من مكان الدنيوي إلى المكان المقدس وهو مقر الولي وقد يصاحب هذه الحركة سلوك مادي ومعنوي يظهر في إقبال الناس على هذه الأماكن.(طواهري الميلود،2006،ص 156)

الولي:

يعني القريب ، المحب ، الصديق ، وكذا التابع ، وهو الرجل العالم الذي أدى أوامر الله وتقرب إليه بشتى العبادات حتى أصبح مثلا يقتدي به لمن أراد الكمال الصوري والمعنوي ، وقد عرفه أبو قاسم سعد الله بأنه الشخص الذي يحمي المدينة من الغارات ومن النكبات الطبيعة وذلك يعني أن لديه قدرة ممنوحة من عند الله عز وجل فيمنحه القوة ويمنحه البركات وصنع الكرامات.

فالولي وهو أن يكون من أصحاب العلم وهو الشخص الذي تولاه الله سبحانه وتعالى بعنايته ولطفه ، وهو الشخص التقي الصالح الذي يحظى في حياته وبعد مماته بتقدير واحترام الناس ، ويكون من أصحاب الدين والعلم والزهد والعمل الصالح ، وحسب الدكتور أبو قاسم سعد الله يقسم الأولياء إلى نوعين وهما المرابطين والأشراف النسب أي ينتمون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأولياء ذوي الكرامات هم الأولياء الذي يمثلون الجانب المقدس قي الضريح أي البعد الروحي المرتبط بصاحب الضريح (أبو قاسم سعد الله،2007 ،ص10)

الكرامة :

في سجل التصوف هي الفعل الخارق للعادة وهي لا تزول بعد وفاة صاحبها ، بل تلتزم قبره وتكون سبب في التواصل بينه وبين الناس ، ويلجأ إليها للتبرك ما وجد بالضريح أو بجواره لذلك أصبح ذكر الأولياء الصالحين مرتبط في الذاكرة الشعبية بكرامات متعددة ومتنوعة.(دحماني محمد ، 2006،ص16)

ثانيا: الإرهاصات الأولى لظاهرة زيارة أولياء الله الصالحين

أ/- في بلاد المغرب العربي:

إن الحديث عن هذه الظاهرة فإننا نتحدث عن تطور التصوف في بلاد المغرب العربي الني كان ابتداء من القرن السادس الهجري ،و عرفت هذه الحركة نجاحا كبيرا راجع إلى العديد من العوامل في الأثر الذي أحدثها الترف و الاستمتاع لدى الفقهاء المرابطين الذين حضوا بالمناصب الرفيعة دفعت إلى الذين لم يلحقوا بمكانتهم إلى الاعتزال لإظهار ترفهم عن ذلك ،و يعتبر أبو مدين شعيب أول من ادخل تعاليم الصوفية إلى المغرب العربي فكانت شهرته واسعة و مكانته رفيعة حيث تخرج على يديه العديد من الطلبة ، فكان أبو مدين يعلم الصوفية للعديد من الشباب لطلب العلم و المعرفة و أصبح لكل جماعة تشتهر بإتباع تعاليم الشيخ، و يعد تأسيس هذه الطرق يلتجأ إلى الزوايا التي أصبحت مكانا للضيافة و مؤسسها صوفي الذي جرت على يده الكرامات ولي وذاعت ولايته وانتشرت فيأتي المريدون لزيارة و التبرك به و التماس الدعاء منه و إذا توفي دفن هناك و تنتقل إدارة الزاوية من بعد إلى احد أولاده أو أقاربه و هكذا انتشر التصوف في بلاد المغرب ، وبعد تغلغل التصوف بين عامة الناس آنذاك قد اقترن الميل إلى رواية الأخبار العجيبة عن الأولياء و ساء الاعتقاد في كرامتهم.(طواهري الميلود ،2006، ص 161)

و ازداد هذا الاتجاه تضخما مع مرور الزمن إذ أصبح هذا الجانب أهم ما ينسب إلى الأولياء وكان من راجع إن الشخصيات الصوفية و منها أبو مدين شعيب ساعده على انتشار ظاهرة الأولياء في بلاد المغرب و ابتداء من القرن الرابع عشر ميلادي لم يعد الصوفية ينتسبون إلى الخاصة كما كان المحال عليه من قبل ليختفي التصوف تماما و لمدة قرن تقريبا حتى منتصف القرن الخامس عشر ميلادي خاصة بعد سقوط الأندلس الهجوميات الاسبانية و البرتغالية و تحولات اجتماعية و ثقافية خاصة مع ضعف الدويلات المرينية و الزيانية و الحفصية، فنتيجة تدهور الأوضاع الاقتصادية و الثقافية و الاجتماعية و الفكرية و انتشار الجهل و الخرافات فهذه العوامل أدت زيادة سلطة الروحية واتساع النفوذ وكثرة العدد هؤلاء الأولياء، ومن جهة أخرى لقد ساهم الخطر المسيحي على شمال إفريقيا غي تقوية نفوذ الجماعات الصوفية فظفروا باحترام عامة الناس و ارتفع شانهم وزاد نفوذ سلطانهم، وكما نسب بعض رجال الصوفية إلى الأشراف حين أنها لم تكن معروفة من قبل عند المتصوفين القرن الثاني عشر. (فيلالي المختار الطاهر، ، ص18) . ولقد تكلم الدكتور طواهري الميلود عن ظاهرة الانتماء إلى سلالة النبي و كانت بعد خروج المورسكيين إلى بلاد المغرب و ظهور اسر شريفة مدعية الشرف بالولاء و كان يطلق على أفرادها العديد من الأسماء مولاي و سيدي، وقد قام المرابطين اختيار الأرياف مكان لممارسة نشاطهم الذي ساعدهم على بسط نفوذهم و انتشارهم حاجة الناس إلى من يعلمهم و يوجههم و يستمدون منه القوة على متاعب الحياة .

ب/- في الجزائر :

لقد ظهرت الطرق الصوفية في الجزائر منذ بداية القرن السادس عشر أخذت في الانتشار في النصف القرن الثاني من القرن ال18 ويرجع البعض المؤرخين ذلك إلى التأثير الخارجي، و حسب الدكتور طواهري الميلود أن مثقفي الجزائر كانوا يطلبون العلم خارج ديارهم لافتقاد المعاهد و الجامعات فإثناء ذلك يتلقون ممارسة العلم و استوردوا المذاهب الصوفية من البلاد العربية و التي كانت تأتي من بلاد فارس و الهند و اسطنبول ، مما ينبغي الإشارة إليه أن رجال الطرق الصوفية بحكم سلطتهم المؤرخين أن عدد الطرق الصوفية التي كانت موجودة في المغرب الإسلامي ،وفي أواخر القرن الثالث العشر الهجري طريقة من مجموع ست عشرة شاذلية الأصل وأهمها، القادرية والسنوسية والرحمانية و الدرقاوية والشاذلية والعيساوية وكان يعرف على الشيوخ لمؤسسيها بكرامات كثيرة إلي يورثها لتلامذته ويكون مقر الشيخ ملجأ لبؤساء في حياته وبعد مماته يعد وليا يستنجد به الناس. (نفس المرجع، ص ص 25- 26)

ثالثا: علاقة الزائرين بأولياء الله الصالحين

إن زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين كانت تقدم العديد من الخدمات والوظائف إلى أفراد المجتمع وكانت أشهرها الخدمات العلاجية للعديد من الأمراض ونذكر منها العقم انفصام الشخصية والإجهاض الإرادي والأمراض الخاصة بالمعصم وأمراض الجهازين العصبي والهضمي، وكذلك إن العلاقة التي كانت تربط الزائرين بولي الله الصالح هي علاقة طقوسي عقائدية حيث أن الزائرين يزورون المقامات حسب ما أتيحت الفرصة ولهذا النوع من الزيارات شروط وهي كالتالي :

وهي أن لا يتخذ على مكان المزار الضريح بناء ولاشيء يميزه ولا يعلق بها خيوط أو غير ذلك ويشترط من الزائرين أن تكون مدة زيارتهم قصيرة ، إلا أن هذه الشروط تعتبر في الأوساط الشعبية أن زيارة الأضرحة أولياء الله الصالحين تجلب الخير وتقرب العبد إلى ربه عن طريق الدعوات والصدقات، ولذلك بقيت مكانة الأولياء هامة في المخيال الشعبي ،وكان الناس يلجاون إلى الولي الله الصالح من أجل التخلص من الظلم الحاكم ودعاء من اجل الطلب الشفاعة من الله عزوجل والشفاء من الأمراض وتفريج الكرب والهم ، وذلك راجع للمعتقدات والدوافع المؤدية لزيارة الأولياء مثل الحاجة إلى الشفيع أو وسيط ، ولم تكن العبادة في العالم القديم بالتي يمكن تخيلها دون وثن أو صورة ، فقد كانت الآلهة دوما مجمدة إما صنما أو كوكب أو ظواهر الطبيعية في حد ذاتها وكان لابد من القرون الطويلة حتى يرسخ مفهوم الجديد للآلهة في الأذهان غير أن الإحساس ظل دائما لدى البشر بالفجوة الهائلة التي تفصل بينهم وبين الالاه كان ينبغي ملئها وهي حاجة نفسية فسرعان ماحلت زيارة الأضرحة الأولياء الله محل عبادة الآلهة والأسلاف ، وقد تحولت هذه الحاجة إلى حاجة الشفيع أو الوسيط يتجسد في شخص صالح يشعر بمعاناتهم ويتكلم لغتهم ، لذلك يرتبط الأفراد الذين يقطنون في مدينة واحدة أو قرية واحدة بهذا الولي وطلب منه يد العون ويلجأون إليه في وقت الضائقة وربما لم يعد الولي الصالح سوى فكرة يلجأ إليها الطالب المعتقد في قدرات هذا الولي في التوسط مع العالم العلوي. (محمد مبارك الميلي،1982،ص13)

رابعا: علاقة أولياء الله الصالحين بالزوايا

إن تكاثر الأتباع والمريدون خاصة بعد تأسيس الطرق الصوفية إذ تجمع حول هذه الطرق حلقات من الشباب لطلب العلم والمعرفة فأصبحت كل جماعة تشتهر بإتباع تعاليم الشيخ ، وكان أي صوفي بعد تأسيس هذه الطرق يلتجأ إلى الزوايا التي أصبحت مكانة للضيافة ومؤسسها صوفي جرت على يده الكرامات الولي وذاعت ولايته وانتشرت ، فيأتي الميريدون لزيارة والتبرك به

والتماس دعاء منه وإذ توفي دفن هناك وتنتقل إدارة الزاوية إلى أحد أولاده أو أقاربه الطلبة وهكذا انتشر التصوف ففي مطلع القرن الحادي عشر ميلادي المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة والمجاهدات النفسية هو الزوايا التي تعتبر مؤسسة خيرية تعليمية بالمفهوم الحديث لما تأدية من الخدمات الاجتماعية والدينية ، فالزوايا ساعدت في ظهور أولياء الله الصالحين فكانت عبارة عن مؤسسة دينية وثقافية واجتماعية وعسكرية وهي عبارة عن فناء واسع تحيط به المرافق منها المسكن الشيخ والمسجد وحجرات السكن للطلاب ولقد لعبت الزوايا دورا في تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الدين ومركز لإيواء الطلبة وملجأ الفقراء والمساكين والأيتام ومصدرا لانتفاضات الشعبية ومراكز ثورية للدفاع عن الهوية الوطنية الإسلامية، فتبعا لانتشار الجهل والخرافات في بلاد المغرب ابتداء من القرن الخامس عشر فان الناس أصبحوا يعتقدون أن الإنسان لا قدرة له في هذا العالم إلا باستعانة بقدرة الولي الله الصالح ، فالإشراف على إدارة الزوايا تكون من طرف إما المرابط أو المقدم الذي هو شيخها فيراقب أعمال الطلبة وهو الذي يسجل عليهم كل المخالفات والأخطاء التي يرتكبونها كما كان يتولى الفصل قي الخصومات بين الأهل و القبائل والأفراد ويحرص على إيجاد الحل المناسب له ويساعد في إدارة الزاوية وكيل وعدد من الخدم المتطوعين إما الموارد الزاوية فتتمثل في دخل الأوقاف والأحباس، وفي الزكاة والهدايا التي يتلقونها من الأفراد القبيلة والنذور والوعدة وما يجمعه لها تلاميذ الزاوية في حالة عجز مواردها من المناطق التي تخضع لنفوذها، فاستطاعت الزاوية أن تكتسب ثقة الأوساط الشعبية المغاربة بفضل دورها الايجابي في نشر العلم بجميع مستوياته وبفضل شيخها الذي كان من أولياء الله الصالحين والمباركين. (أبو قاسم سعد الله ، 2007 ، ص 268). وعليه إن أصل كلمة التصوف هي مصدر الفعل الخماسي مصوغ من الصوف للدلالة على لبس الصوف، فلا علاقة إذن لها بأهل الصفة ولا بالصوفية اليونانية كما يحلو للبعض أن يزعم .يقول أستاذ ماسينيون: أول رجل نعت بالصوفي لقبا مفردا في أول مرة في التاريخ هو جابر بن حيان صاحب المذهب الخاص بالزهد ثم أبي هاشم الكوفي خلال نصف الثاني من القرن الثامن للميلاد. وبالخصوص أصول التصوف يوضح لنا الأستاذ ماسينيون قائلا :إذا ما استبعدنا الأساطير المتأخرة فانا نجد أدباء كبار من أمثال الجاحظ وابن لجوزي قد ذكروا لنا أكثر من الأربعين زاهدا عاصروهم كانوا يمارسون حياة التصوف كما نعرفهم الآن، كما أجاز الكثير من المؤرخين اعتبار أباذر وحذيفة من السابقين إلى التصوف وجاء بعد هؤلاء النساك والزهاد والبكاؤون إلى نهاية القرن الثالث الهجري، العهد الذي بدأت تعقد فيه الحلاقات للنظر في شؤون الدين وتلقى فيه الدروس الصوفية في المساجد وهو أيضا العهد الذي

سيق هيه الصوفيون إمام القضاة لاختلافهم مع الفقهاء وكان أشهرهم ذو النون المصري والنوري وأبو حمزة والحلاج، وعليه يمكن أن نتطرق إلى بعض الأدوار التي تقوم بها الزوايا وهي كالتالي: (بودواية بلحيا،2009،ص ص 12 13)

1/-الدور الاجتماعي : لقد تطورت الزوايا في المجتمع الجزائري وازدادت أهميتها لدى العامة منذ نشأتها فأصبحت قبلة للناس تطرح مشاكلهم وانشغالاتهم و لها دور مهما في فض النزاعات القائمة بين الناس بطرق ودية فهي لا زالت مكانا لعقد الصلح للأفراد أو الأطراف المتخاصمة فشيخ الزاوية أو القائم عليها يعقد جلسة الصلح بين المتنازعين مهما تكن الصعوبة أو الخطورة المسألة المختلف عليها، فالزاوية تساهم في حلها وقبل الظهور المحاكم والمؤسسات القضاء كانت الزوايا وعلى رأسها الشيوخ تلعب دورا المحاكم طبق للشرع الإسلامي وبالأخص إبان العهد الاستعماري حيث حل أبناء الوطن المسلم كانوا يلجأون إلى حكم الشرع الممثل في الزوايا هروبا من الحكم المحاكم الفرنسية،و لقد سهرت الزوايا في نفس المضمار أيضا على التحام المسلمين لأنها كانت تهب بأسرع من لمح البحر في إطفاء شعل الفتن والخصومات بين الأفراد والقبائل والسعي لبقاء الشمل وملموما وهي بذلك تزرع الأخلاق والقيم السمحاء في نفوس أبناء المجتمع. (مصطفى السنوي، 2002، ص 125)

إن الزاوية مقدسة عن أفراد المجتمع وكونها محل اهتمام وتقدير لدى غالبية أفراد المجتمع فإن العامة يقبلون بمصالحته وهذا لتتقدم به ويعتبرون منه حكمة العادل، إن الذاكرة الشعبية تحتفظ بأن التصوف مقترن ذكره بالصلح في الأخلاق والتآخي في المعاملة وفي أحلك الفترات التي عرفت فيها المجتمعات من الآفات والنقائص وانصرف رجال التصوف الأفاضل إلى التربية بمختلف أبعادها وثمراتها النفسية أي الروحية والاجتماعية من ذلك عنايتهم الخاصة بتحقيق التآخي بين أفراد المجتمع ،إذ من لوازم النظرة الصوفية أن الإخوة بين الأفراد المقبلين على الله وتبادل والتآزر والتناصح والتعاون ، وكانت الزاوية تهتم بحل الخلافات العائلية خاصة المشاكل العائلية حيث كانت تتدخل كطرف صلح وإصلاح بين الأزواج أو غيره وبعض الحالات بعقد القران بين الزوجين داخل الزاوية وتتكفل وتتكفل الزاوية نفقات الأفراح إلى جانب هذا تبقى الزاوية مفتوحة لكل طلاب العلم والباحثين وعابري السبيل ، دون أن تسنى المحتاجين والمساكين الذين يجدون في الزوايا مأوى فالزاوية الدينية تعتبر ركيزة التكافل الاجتماعي للزوايا في المجتمع ومحاولة القضاء على الكثير من المشاكل مثل الفقر والسرقة والتسول وعليه فإن الزاوية أنشأت لهذا الغرض وهو السعي في مصالح الناس وتخفيف آلامهم ومشاكلهم، وعليه فإن للتصوف تراث روحي يميز الفكر

الإسلامي في شتى مراحله لذلك يعتبر التصوف مدرسة اجتماعية دينية وتربوية من خلال بعدها الاجتماعي والأدوار التي تقوم بها من أجل التقدم وتحقيق التطور لهذا المجتمع ، فتتعدد الأدوار التي تقوم بها الزوايا (الصوفية) في المجتمع وهي متنوعة ومتعددة كلها تهدف إلى الحفاظ على الهوية المجتمع.

2/- الدور الثقافي :أن الصوفية تخدم ثقافة الإسلام الحق بصفة عامة والثقافة العربية الإسلامية بصفة خاصة، فهي كانت تقوم بدور خدمة الإنسان كإنسان دون أي تفرقة عرقية أو عنصرية ودون النظر إلى جلدته سواء كان أبيضا أو أصفرا أو أسود أو أحمر، فذلك لايهم في نظرة الصوفية، ومن خلال رجالها تسعى دوما إلى تحقيق السعادة الروحية والاجتماعية للإنسان أينما كان ومن دون شك تتبعها السعادة المادية وإن كان رجال التصوف الحقيقيون قد أضربوا على هذا النوع الأخير من السعادة ، فالصوفية من خلال تطورها عبر التاريخ والمواقف المشرفة لها ولرجالها الذين في أغلب الأحيان ضحوا بالنفس ولنفيس لبلوغ الأهداف أو الهدف الأمثل روحيا وأخلاقيا وثقافيا وكما أنها تعمل على نشر الثقافة والعلم بين الأقوام والقبائل الشعوب لأنهم يؤمنون بأن كل الناس لهم الحق في المعرفة والتنور وأنا شأنهم شأن الناس أو الأفراد الآخرين وفي مختلف الأصقاع والبقاع العالم. (عمار هلال،2007،ص 101)

3/-الدور التربوي :إن الدور الأول والأساس والمتعلق بوجود الزوايا كمؤسسة دينية غير رسمية هو أن تؤخذ على عاتقها تعليم الطلبة ونشر الوعي العقائدي وسد الحاجيات الأمة في تعليم أبنائها فتقيم دروسا لمحو الأمية لتفتح أقساما للتربية التحضيرية وأنها في ذلك تعمل على ترسيخ المبادئ الأساسية الموجهة لتربية المريدين فالزوايا من هذه الناحية تعتبر مدارس ابتدائية وثانوية ومعاهد علمية في آن واحد فكانت إلى عهد قريب من المراكز الهامة التي حفظت اللغة العربية والثقافة الإسلامية من الاندثار في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي الطويلة (1830-1962). (نيكولا زيادة،1963، 37). وعليه فإن تتبع لمراحل للتعليم في الجزائر يجد لزوايا نشاط تعليمي وثقافي هام لكن ليس لمعظم الزوايا القائمة بالتعليم العربي الديني في مرحلة الدراسة مناهج المنظمة من ناحية الكتب والامتحانات وتوزيع الطلاب على كل السنوات الدراسية بحسب أعمارهم ومشوارهم العلمي والتفتيش والنظم العلمية ،وإنما كان التعليم يسير فيها بطريقة عشوائية حيث كانوا يدرسون كتاب أو كتابين في البلاغة والقواعد بعد الحفظ للقرآن الكريم كله حفظا جيدا وهناك من الزوايا تهتم بتدريس العلم المنطق وهناك بعض الزوايا حرست على التحويل مؤسساتهم إلى مدارس أخلاقية لتهذيب النفس.

لقد كانت الزوايا تعج بالمكتبات التي تحتوي على الكتب المشارقة والأندلسين بالإضافة إلى المؤلفات المحلية التي ألفها أصحاب الزوايا ومشايخ الطرق الصوفية ومن هنا كانت الزاوية مركز إشعاع ثقافي وعلمي وكما كانت تستعمل بالإضافة إلى كونها مراكز لنشاط ديني ومدارس وملاجئ وبيوتا لعمل الخير. فإن لصوفية دور التربوي تقوم به من أجل الخدمة والمحافظة على الشريعة الإسلامية وما أتى به الخلفاء الإسلاميين، ففي الجزائر مثلا بعد الاستقلال مباشر انصاع الكل وراء بريق التقدمية تحت ضغط الموروث فكانت الزوايا تقوم بدور التربية والتعليم وترسيخ الفكر الإسلامي عن طريق التدريس وذلك من أجل القضاء على الأمية والجهل التي كانت تجتاح المجتمع الجزائري فلذلك نجد أن الفكر الصوفي أخذ طابع وخصوصية مغاربية في التأقلم مع الواقع المحلي ، حيث أنه لا يفرق بين العرب والأمازيغ ولهذا كانت تهتم بتدريس الأدب العربي التي ساعدها في تشكيل هذه الخصوصية المغاربية التي أثرت فيما بعد على النهضة العصرية الأوروبية بشكل ملفت للانتباه وهذا التطور المغربي الصوفي أخذ جودة من الحياة الاجتماعية وهذا ما أثبته ابن خلدون في خطاب له سنة 1856 حيث قال " أن الأرض ليست ملكا للإنسان بل الإنسان ملك للأرض " فالتعليم كان عن طريق تدريس القرآن الكريم وذلك في مدارس القرآنية ممثلة في الكتاتيب والمغارات والزرائب والخيم والمساجد من أجل المحاربة الأمية التي كانت في ظروف جد صعبة بوسائل بدائية تكاد تكون منعدمة في أغلب الأحيان.

4/-الدور الأمني وكيفية الحفاظ على الوطن: إن الصوفية على ممر التاريخ كانت تهدف بتحقيق مجمل الأدوار في الواقع المعاش وهذا ما استطاعت الوصول إليه خاصة في مجال الأمني فمن خلالها استطاع مجتمع الجزائري أن يحافظ على التماسك الاجتماعي والعمل على المحافظة على الوحدة الوطنية من خلال الحث وتعليم أفراد المجتمع على مبادئ الشريعة الإسلامية ،لأن المحافظة على الوحدة الوطن هي جزء من المحافظة على الوحدة العقيدة الإسلامية باعتبار أن الدولة الجزائرية دولة مسلمة، وذلك عن طريق الوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي والعمل على محاربته واسترجاع السيادة الوطنية ففي حقيقة الأمر أن التاريخ الثورة الجزائرية كان شاهدا على معظم الأدوار والأعمال التي قام بها أعظم رجالها. (عبد المنعم القاسمي المبني، 2006،ص61). فكانت هذه الزوايا صمام الأمان ضد التنصير الذي سخرت له أوربا العديد من الإمكانايات والوسائل والموارد البشرية والمالية متمثل في أقدر الرجال عبر كامل القارة الإفريقية حيث جندت الكنسية أهم خبرائها على شاكلة (لا فيجري) والأب (دو فوكو) والآباء البيض والراهبات اللاتي ضحين بشبابهن من أحل العقيدة وتحملن القوة الطبيعية وصعوبة التضاريس عبر الهضاب العليا

والأطلس الصحراوي ولكن النتيجة كانت عكسية وهذا بفضل الزوايا التي من خلالها أسلم النصارى وتوغلت الصوفية في أدغال إفريقيا متأقلمة مع واقعها المحلي، فأصبح لها شأن العظيم وذلك عن طريق مقاومة كل أنواع الظلم والاضطهاد والتنوير والتعليم والإرشاد والتوجيه وثم أنهم لم يكونوا يخشون الله لومة لائم فقد كان كل همهم إرضاء محبوبهم وخالقهم سبحانه عزوجل وحسب ابن خلدون فإن الصوفية كان تحافظ من خلال أدوارها على الاعتدال كعنصر لمواصلة الحيوية الصوفية في إطارها المحلي.

5/-الدور الطبي والعلاجي : كان الشيوخ الزاوية يتمتعون بنفوذ كبير خاصة بتعاطيه قدرة شفاء من عدة أمراض ويمكننا أن نذكر منها مايلي: عرق النساء، والروماتيزم ومن بين هذه الزوايا أشهرها الزاوية الدر قاوية بندرومة في تلمسان التي تنتمي إلى الزاوية طيبة في شمال الغربي الجزائر، وكذلك الزاوية الشيخ سيدي محمد بن عمر، فكانوا شيوخ الزوايا يقومون بأدوار اجتماعيا منها طبية وتتمثل في معالجة المرضى الذين ليس لهم القدرة المالية على معالجة أمراضهم وهنا نقصد فئة الفقراء والمساكين الذين كانوا يلجأون للشيوخ الزوايا من أجل العلاج.

6/-الدور التربوي و الروحي: إن التعليم والتربية في الزوايا متلازمان فالتعليم تلقين للمعلومات والتربية توجيه وتعذيبا للنفس، فالتعليم يتجه إلى العقل والذاكرة والتربية تتجه إلى النفس والروح ، ومن جهة أخرى يهدف إلى تكوين الرجال ذوي علم ومعرفة وكذالك التربية تهدف إلى تكوين أشخاص صالحين مستقيمين ولاريب فيه أن التعليم بلا تربية لا فائدة منه والتربية من غير علم لا تحقق ثمرتها على الوجه المطلوب فلا خير في علم لايكتسي الأخلاق ولا جدوى من تربية لا تثمر استقامة وعملا صالحا، فالزاوية (الصوفية) قدمت وما زالت تقدم أدوار ووظائف سواء على المستوى الاجتماعي أو الروحي ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

أ- التدريب على الالتزام القواعد النظام، فطالب الزاوية يلتزم بالانضباط والتقيد بالبرنامج اليومي الذي تمد الفقراته من قبل أذان الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء فلا يختلف عن صلاة الجماعة في المسجد ولا عن الحلقات الذكر القرآنية أو الدروس العلمية وهو يأخذ المثل من شيوخه في إقبال على العلم بهمة وعزيمة وصبر وثبات ويطلبون العلم لله ويعطونه لله مع الاستزادة منه وعدم الانقطاع عن تحصيله إلا حين ينقطعون عن الحياة، والمجتهدون من الطلبة يتحلون بأخلاق حميدة وهمة عالية يقدمون على أقرانهم ويحفظون بمكانة متميزة لدى شيوخهم وبين زملائهم. (عبد الوهاب الشعرائي،1973،ص29)

ج- تأهيل الطلبة للحياة الجماعية القائمة على التعاون بتدريبهم على العمل التطوعي الجماعي وخدمة مصلحة عامة أو المنفعة الاجتماعية، فكل هذا يندرج ضمن التربية الروحية التي تكون عن طريف هذه الخطوات السابقة وإضافة دروس التركيبية ومجالس الذكر الذي تنشرح فيه الصدور وتطمئن به القلوب ،فهذه التربية هي الوسيلة المثلى للحياة الإسلامية المتوازنة والمتكاملة فهي بذلك تغذي مشاعر الإخوة والمحبة والرحمة إلا أن الهدف المنشود هو إقامة التوازن بين أخذ الإنسان حظه من الدنيا وسعيه في الآخرة، وهذه العناصر تمثل جزءا صغيرا من هذه الرسالة التي تقدمها الزوايا والتي لا ينكرها أهميتها إلا جاحدا، فمناهج الإسلام في الأخلاق هو كتاب الله عز وجل الذي يحفظه ويتلي وتبذل الجهود وإن كانت محدودة لفهم آياته وخاصة ما ينطبق منها بالعقيدة والدين والأخلاق، فإن الصوفية أخذت بهذا المنهج كأرضية يقوم عليها التعليم وإن كان هذا التعليم يقتصر على الدين واللغة العربية والتربية الروحية والخلقية ويمكن أن نظهر الأهمية التربية الروحية فيما يلي: (بشينة سلطاني الحمراوي،2013،ص 11). فإن الدور الروحي للصوفية يتجلى من خلال تأكيد على الفرد في المجتمع كفاعل يؤثر ويتأثر من خلال العلاقات المتبادل بينه بين الأفراد المجتمع الآخرين وعليه فإن الدور الاجتماعي للتصوف يرتكز على أسس أساسية وهذا حسب ما ورد عن سيدي بومدين الذي تحدث عنه بودواية بلحيا في كتابه التصوف في بلاد المغرب العربي وهي:

الزهد، المحاسبة، الإخلاص، المراقبة، والفضيلة، وفريضة وقربة ،فالمحاسبة هي أن يحاسب الإنسان نفسه على كل عمل يأتيه فيزن بميزان الشرع والإخلاص ، فالمراقبة هي اليقين بأن الله عليه رقيب والتوبة الصادقة الذي ينبثق عنها الإخلاص كأنه جزء منها ثم يتفرع منها إلى الجانب المادي أما الزهد فيتفرع عنه الجانب النفسي أي المحاسبة والمراقبة ويكون العبد بذلك قد تهيأ للدخول في الطريق الموصل إلى القرب وإذن إلى التصوف، فذلك نجد مصطلحات الصوفية تدل في معناه اللغوي على معناها الاصطلاحي شأنها شأن كل الفنون الأخرى كالأخلاق والفلسفة والنحو والفقه ، فالصوفية هي ممارسة روحية اجتماعية تحث على السعي في إصلاح الناس وتأليف القلوب على الإسلام بالبذل والإكرام ومقابلة الإساءة بالإحسان، إنصافا للنفس وإنصافا للمجتمع، فذلك نجد عند السالمية والقرامطة أن الصوفية تهتم أو تقوم بدور تأليف معاني يتأثر العقل الفعال والعقل الفعال هو الفيض الإلهي أي النور المحمدي أما جانب الإشرافية فهي تقوم بدور جوهره النفس وتألق النور اللالاهي وإشرافات العقل الفعال وذلك حسب صدر الدين البشيرازي وقد قام أأهم الرجال التصوف بمحاربة البدع الهدامة وانحرافات المشينة إلي نالت قدسية الدين

الإسلامي الحنيف. (بودواية بلحيا،2009،ص ص58-60). وقد اهتمت الصوفية في فلسفتها بالجانب الروحي بتقوية فناء الذات وتوحيد الروح بالخالق عز وجل وذلك عن طريق تدريب مبادئ الإحسان في أسمى معانيه وذلك بدون تمييز جنسي أو عرقي أو مذهبي في محبة وتقوى الدائم وحلاوة متناهية وكذلك أن الصوفية ترتكز على العزلة والخلوة متناهية قبل كل شيء في التأمل في عظمة الله وخالق الكون وهذا حسب ما جاء عن الأستاذ الزهري سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري الصديقي الخلوتي ، ولقد نادوا المتصوفة بالحرية ونادوا بالثورة على الأوضاع وكذلك نادوا بالتغيير المنكر الذي منحتهم إياه الشريعة الإسلامية وذلك من أجل خدمة الدين والأمة بالرغم من الحصار والمضايقة والتهديد ، فحياتهم كلها جهاد ونضال في سبيل الدفاع عن القيم والمبادئ الدين والوطن وذلك نتيجة التقوية الروحية والعمل بمبادئ الشريعة الإسلامية ، فكانت الزوايا والمساجد والقباب والأضرحة توصف بنعوت مختلفة مثل سلطان الأولياء سلطان الصالحين فهذا التكريم الذي حضي به رجال هذه الطرق والتبرك بهم من طرف الأوساط الشعبية ولجوء إليهم لي حل مختلف المشاكل المستعصية.

خامسا: زيارة الأضرحة أولياء الله الصالحين بين المعتقدات والطقوس

إن المجتمع الجزائري يحمل العديد من السمات والجوانب الاجتماعية والثقافية وسوسيو أنثروبولوجي وهي عديدة ومتنوعة منها الطقوس والممارسات الاجتماعية كالطقوس المرتبطة بالجنائز والأفراح والممارسات المرتبطة بالأعياد الدينية والسنوية وغيرها وهذا يدخل في دائرة التفاعل بين الإنسان و محيطه المكاني والزماني الذي يكشف عن العديد من الدلالات الرمزية والبنيوية لأماكن المخصصة لطقوس والممارسات الشائعة في المجتمع وأشهراها زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين باعتبارها جزأ من العلاقة المتواصلة بين الأفراد المجتمع الأحياء ولأمواتهم الأجداد ، وأن نظرة الأنثروبولوجين لظاهرة الزيارة الأضرحة اتخذت طريقة الخروج عن العالم المادي إلى العالم الروحي ممثلا في الرمز الولي الصالح واعتبرت محاولة الهروب من الحياة الدنيوية إلى الخيال المقدس فالولي الصالح يحض بمنزلة عالية في وسط محيطه الاجتماعي وكان الأهالي المنطقة الذي ن ينتمون إليها يقدرون مكانته واحترامه فمن بعض الممارسات الدالة على ذالك هو زيارة ضريح الولي وتقبيل قبره وكذلك أداء اليمين باسمه وكذلك يقوم بعض الزوار بإشعال الشموع في أروقة المبنى وذلك لأن الولي كان يقوم بحلقات القراءة القرآن الكريم وهذا معروف في كل الأضرحة وتكون إلى ساعات متأخرة من الليل وتحولت هذه الظاهرة إلى طقوس

استحدثت لها دلالات فكان النساء الجزائريات يقمن بإشعال الشموع حسب عدد أفراد عائلتهن لتبرك بها ، فأولياء الله الصالحين كان لهم دورا بارزا في الحياة الاجتماعية بمختلف مجالاتها فقد كانوا يتميزن ببعض الكرامات والخوارق التي يكتسبونها بفضل مكانتهم الخاصة عند الله سبحانه وتعالى لذلك كانت أوامره عند أفراد المنطقة مطاعة ومنفذة فالولي الصالح هو الذي يتحكم في زمام الأمور الاجتماعية ويمكن أن نبرهن بمثال أن الأولياء الله الصالحين كانوا يحلون النزاعات والخلافات الاجتماعية والقبلية والعائلية وكانوا يقومون بواجبهم التعليم المتمثل في تفسير القرآن الكريم وأحاديث وأحكام الشريعة للناس كما كانوا يحفزون الأفراد على جهاد الكفار بالحكم الانتساب إلى سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم ففي فترة الحالية أن مجمل الزيارات أضرحة أولياء الله الصالحين لها العديد من العوامل والأسباب المؤدية إلى القيام بالممارسات الطقوسية لدى الأفراد المجتمع الجزائري فهذا أدى إلى التعدد الاعتقادات المفسرة لتلك الممارسات المشكلة لمخيال الشعبي فالزائرون لأضرحة أولياء الله الصالحين يطمعون إلى تلبية حاجاتهم وأهدافهم وحل مشاكلهم من خلال التبرك بأولياء الله الصالحين ، فكانت الحاجات متنوعة من حاجات الصحية وأخرى اجتماعية ودينية وهي كالتالي: (ابن أحمد أحمد،2001، ص14)

الحاجات الصحية : تتمثل في الحاجة إلى تحصيل على الصحة وسلامة الجسدية أي الشفاء من الأمراض المختلفة تكون عن الطريق الدعاء للولي الصالح أو التداوي بالرقية الشرعية من طرف القائم عن الضريح ويكون في غالب الأحيان من أحفاد الولي الصالح .

الحاجات الاجتماعية: في الغالب الأحيان تهدف إلى التأمل في الحصول على الحماية والأمان من خلال التماسك الاجتماعي والتكافؤ الاجتماعي بين الأفراد المنطقة الواحدة عن طريق حل النزاعات والصراعات القائمة بينهم . (أبو قاسم سعد الله ،2007 ،ص20)

الحاجات الدينية : إن ظاهرة الزيارة الأضرحة تتم في جزأ كبير منها متمثل في التقديس القوى الخفية الخارقة وكذلك تعتبر مكان لتنفيس عن المكبوتات النفسية ومجال للتواصل مع الناس من حلقات الذكر أي قراءة القرآن الكريم باعتبار أن مقر الضريح يعتبر كمدرسة قرآنية حرة حيث يمارس فيها التعليم وتلقين مبادئ الدين الإسلامي وتحفيظ القرآن الكريم ودلك من أجل الضبط الديني لسلوك أفراد المجتمع وتوجيههم إلى السلوك الصحيح ، وكذلك اللجوء إلى الشيخ المرابط الموجود بالضريح والذي يقوم بتجهيز الخلطات العقاقير والأعشاب وغيرها وفق طقوس معينة خاصة منها مسح رأس المصاب أو الزائر ومرافقيه وترديد عبارة الشكر والثناء والدعاء للشفاء من الأمراض.

سادسا : المساجد وعلاقتها بأولياء الله الصالحين

لقد كانت هناك العديد من المساجد التي تحمل بعض الأسماء الأولياء الله الصالحين نظرا لعلمهم ومكانتهم العلمية مثل مسجد أبي مدين شعيب الاشبيلي وغير ذلك من المساجد التي ارتبط اسمها بأولياء الله الصالحين، فحسب الدكتور الميلود طواهري أن هذه المساجد كانوا يدفنون بجوارها الأولياء الله الصالحين وذلك يدخل في نطاق عقيدة الناس حول الصلاح الأولياء و قدرتهم في تسليط غضبهم على من يستهين بحرمهم ، لهذا نجد كل مدينة محروسة بولي من أولياء الله الصالحين الذي يحميها ، إلى أن المساجد كانت تسهر على تعليم الدين الإسلامي للخروج من الجهل الى العلم باعتبار أن العلم قيمة أساسية في الإسلام حيث أن أول آية نزلت في القرآن الكريم تحث على العلم ، فالعلم والإيمان هو النموذج المتكامل لقيام الدولة التي تتوافر لها كل مقومات القوة المادية والمعنوية ولعلم هنا ليس التفقيه في الدين فقط ودعى الإسلام إلى تحصين المجتمع ، فالعلم في نضر الإسلام حق للجميع يجب نشره وإذاعته للناس ، وليس من الإسلام أن تكتم علما توصلت إليه أو تحتكر سره ، فذلك ضار بالبشر وألف العرب المسلمون في مجال الطب ومن موسوعات الطب الإسلامية ما لم يوضع له نضير في الفخامة و تمحيص وقد ترجمة منها إلى اللاتينية فهذه المبادئ والتعاليم كانت تلقن لطلبة الزاوية من أجل نشر الدعوة الإسلامية . (حسين عبد الحميد أحمد رضوان ،2008 ،ص ص 281-282)

خاتمة:

إن الحديث عن فكرة زيارة أضرحة أولياء الصالحين تعد مجال خصبا للباحثين الاجتماعين و الأنثربولوجيين من خلال دراسة المستويات البناء الثقافي والاجتماعي والديني لأضرحة أولياء الله الصالحين التي تتميز بالعديد من الممارسات والتقاليد التي تندرج ضمن دائرة المعتقد الشعبي للمجتمع الجزائري حول زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين، إلا أن هذه الظاهرة مازالت مستمرة ومازالت العديد من الممارسات الطقوسية المتنوعة لدى أفراد المجتمع وعلى مختلف الفئات الاجتماعية إلا أن البحث الاثنوغرافي لا يزال واسعا وقائما في هذه المواضيع التي تحمل في طياتها الموروث الثقافي الشعبي المرتبط بأولياء الله الصالحين.

الهوامش :

1- طواهري الميلود ،المقدس الشعبي – تمثلات ومرجعيات وممارسات -،لبنان بيروت، دار الروافد الثقافية للنشر ، ط1 ، 2006 .

2--أبو قاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزائر، دار البصائر للنشر، 2007 ، ط4.

3- دحماني محمد، حكايات كرامات الأولياء الله في منطقة الشلف ،ماجستير في الأدب العربي الشعبي، كلية الآداب واللغات ، جامعة الجزائر ، 2006.

4- فيلا لي المختار الطاهر ، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها خلال العهد العثماني ، باتنة الجزائر ، دار الفكر الفارابي للنشر والطباعة، ط1 .

5- مبارك محمد الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، قسنطينة، دار البعثة للطباعة والنشر، 1982.

6- بودواية بلحيا ،التصوف في البلاد المغرب العربي ، دار القدس العربي للنشر،ط1، 2009.

7- مصطفى السنوي، المقتبسات النبرة في ذكر دور الزوايا ورجالاتها العلمية عبر العصور والأيام ، وهران الجزائر، ألدار الغرب للنشر والتوزيع ، 2002.

8- عمار هلال، الطرق الصوفية نشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، الجزائر، طباعة الشعبية للجيش2007.

9-روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، بيروت، ترجمة نيكولا زيادة، 1963.

10- عبد المنعم القاسمي المبني، أعلام التصوف في الجزائر،الجزائر، دار الجليل القاسمي للنشر، ط2006،1.

11- عبد الوهاب الشعرائي، الأنوار في صعبة الأخبار، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، 1973.

[12]- بشينة سلطاني لحمراوي، البعد الإصلاحي في التراث الصوفي، مجلة الحياة الثقافية دار الثقافة للنشر، تونس، العدد 239، 2013.

13- ابن أحمد أحمد، الوعدة بين الضوابط الدينية والممارسات الشعبية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة تلمسان ، 2001.

14- حسين عبد الحميد أحمد رضوان ، نظرية المعرفة والمجتمع دراسة في علم الاجتماع المعرفة ،القاهرة مصر، المؤسسة الشباب الجامعة للنشر،ط 1، 2008 .